خطاب الكلمة وإرادة التغيير في القرآن الكريم، دراسة تحليلية نقدية

أ. د. عماد هميسي*

سلم البحث في ١٤٤٦/٣/١٨هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٤٤٦/٤/٢٠هـ

ملخص البحث:

لا اختلاف في أنّ القرآن الكريم هو الكتاب الذي ضمّ بين دفتيه ما شرعه من أحكام تنظم شؤون الفرد والجماعة وإلى غير ذلك من العلوم والحكم والأمثال والترهيب والوعد والوعيد وأخبار الماضين وهو كلمة الله التي أوحاها إلى خاتم النبيّين محمّد صلّى الله عليه وسلّم. فالكلمة لفظ يقع في معان كثيرة وهذه المعاني تنصرف إلى وجوه ودلالات بلاغيّة بحسب موقعها في سياق النصّ القرآني، فضلا عن تعدّد صياغاتها الصرفيّة ووجوهها الإعرابية. وهو ما سنبحثه في هذه الدراسة التي نعرض من خلالها ما أمكن من الخصائص التي تتميّز بها مفردة الكلمة، لما لها من أهميّة في الكشف عن كثير من المضامين القرآنيّة من جهة ولما لها من وقع نفسي مؤثر في المتلقي والمتكلم على حدّ السّواء من جهة أخرى. ومن هنا فإنّ قراءة الكلمة في القرآن الكريم هي أكثر من ضروريّة لإلقاء الضوء على حركتها في أساليب الخطاب القرآني برمته ولاستطلاع المخزون الشرعي الذي ترسّخت بها في القرآن الكريم لتكون خطابا ونظاما عقديا ومعرفيا وتاريخيا وسننا تاريخيّة إسلاميّة. غير أنّ الكلمة في القرآن الكريم بقدر ما تتمتّع بالحريّة الواسعة والممتدة بقدر ما هي مقيدة بالضوابط والإجراءات الشرعيّة والأخلاقيّة. بل هي فكرة وآداة عاقلة يعبّر من خلالها الفكر الإنساني الراشد عما ينبغي القيام به من أجل النهوض بالفرد والجماعة والانتقال بهما من الخوف إلى الأمن ومن الشدّة إلى الرّخاء ومن التنافر إلى التعايش ومن التعصّب إلى التسامح ومن الفرقة إلى الوحدة ومن التنازع إلى التعاون على البرّ.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الكلمة، التغيير، التجديد، الفرد، المجتمع، السعادة، سنة كونية، سنة اجتماعية.

Abstract:

The Holy Quran is a book that incorporates the provisions that it has set forth governing the affairs of the individual and the group and other sciences, governance, ideals, intimidation, promise, promise and news of the past. It is God's Word that he has given to the ring of the prophets Mohammed God's prayer and peace be upon him. The word "word" falls in

* أستاذ علوم القرآن والتفسير، جامعة الزيتونة، الجمهورية التونسية.

many meanings. These meanings are directed to rhetorical faces and connotations according to their location in the context of the Koranic text, as well as to the multiplicity of its expressive formulations and expressions. This is what we will examine in this study, through which we present what is possible about the characteristics of a single word, because it is important to reveal many Koranic contents on the one hand and because it has an influential psychological impact on both the recipient and the speaker on the other. Hence, reading the word in the Holy Quran is more than necessary to shed light on its movement in the entire Quranic discourse and to explore the legitimate inventory with which it was entrenched in the Holy Quran to be a rhetoric and a nodal, cognitive, historical and historical order. However, the Word in the Holy Koran as far as it enjoys broad and extended freedom is estimated to be restricted by legitimate and ethical controls and procedures. Rather, it is a sensible idea and instrument through which human thought reflects what needs to be done to advance the individual and the community and move from fear to security, from intensity to prosperity, from dissonance to coexistence, from intolerance to tolerance, from division to unity and from conflict to cooperation on the ground.
Keywords: Holy Quran, Word, Change, Renewal, Individual, Society, Happiness, World Year, Social Year.

المقدمة:

لا اختلاف في أنّ القرآن الكريم هو الكتاب الذي ضمّ بين دفتيه ما شرعه من أحكام تنظم شؤون الفرد والجماعة وإلى غير ذلك من العلوم والحكم والأمثال والترهيب والوعد والوعيد وأخبار الماضين وهو كلمة الله التي أوحاها إلى خاتم النبيّين محمّد صلّى الله عليه وسلّم. فالكلمة لفظ يقع في معان كثيرة وهذه المعاني تنصرف إلى وجوه ودلالات بلاغيّة بحسب موقعها في سياق النصّ القرآني، فضلا عن تعدّد صياغاتها الصرفيّة ووجوهها الإعرابية. وهو ما سنبحثه في هذه الدراسة التي نعرض من خلالها ما أمكن من الخصائص التي تتميّز بها مفردة الكلمة، لما لها من أهميّة في الكشف عن كثير من المضامين القرآنيّة من جهة ولما لها من وقع نفسي مؤثر في المتلقي والمتكلم على حدّ السّواء من جهة أخرى، وكجزء من الوفاء لهذا الكتاب العظيم الذي أمرنا الله تعالي بتعاهده وعدم هجره والاعتناء بصيانته والتزود من معينه.

ومن هنا فإنّ قراءة الكلمة في القرآن الكريم هي أكثر من ضروريّة لإلقاء الضوء على حركتها في أساليب الخطاب القرآني برمته ولاستطلاع المخزون الشرعي الذي ترسّخت بها في القرآن الكريم لتكون خطابا ونظاما عقديا ومعرفيا وتاريخيا وسننا تاريخيّة إسلاميّة. ذلك أن حاجة الإنسان إلى التواصل مع الأخر

ومع محيطه دفعته لابتكار وسائل متعددة ومتنوعة لبلوغ هذا القصد ففطرته البشرية الرامية إلى التعايش مع مكونات اجتماعية مختلفة فرضت عليه التعاطي مع رسائل كل هذه المكونات والتي قد لا يستوعبها كل فرد إذا لم يمتلك المقومات والأسس والركائز التي تساعده على الفعل التواصلي وتحريك آلياته. لذلك كان لابد على الإنسان من تطوير آليات التواصل حيث يبلغ المدى المطلوب ويحرص على الدقة والوضوح في محتوى الرسالة بكل مقاصدها، وهذا يحتاج إلى نفس قوي سيتيح من خلاله اقتناص قدرات الأخر وتشجيعها على التطور والإبداع.غير أنّ الكلمة في القرآن الكريم بقدر ما تتمتّع بالحريّة الواسعة والممتدة بقدر ما هي مقيدة بالضوابط والإجراءات الشرعيّة والأخلاقيّة. بل هي فكرة وأداة عاقلة يعبّر من خلالها الفكر الإنساني الراشد عما ينبغي القيام به من أجل النهوض بالفرد والجماعة والانتقال بهما من الخوف إلى الأمن ومن الشدّة إلى الرّخاء ومن التنافر إلى التعايش ومن التعصّب إلى التسامح ومن الفرقة إلى الوحدة ومن التنازع إلى التعاون على البرّ. وكلّما كانت الكلمة محميّة بالنضج والرشد والعقلانيّة إلا وابتعدت عن اللغو والإساءة والتزييف وقلب الحقائق وتمكنت من القيام برسالتها المبنية على قيم الحق والخير والصدق والإصلاح والتغيير، ولا خير في كلمة لا تضيف شيئا في الخلق وفي العلم وفي المعرفة وفي القول وفي السلوك الإنساني. لذلك هناك الكثير من الناس يجهلون قدرات الكلمة وخطورتها في الهدم أو في البناء، وفي الإصلاح أو في الإفساد وفي الازدهار أوفي التخلف، فوراء الكلمة قوة غير منظورة قد تكون إيجابيّة فتنمي الوعي وتزرع الخير وقد تكون سلبية فتبطش بكلّ إرادة خير وتنال من كلّ وعي راشد. فمن أكبر المشاكل التي تعترض المسلم في هذا الموضوع توهّم كثير من النّاس أنهم في أنماطهم الفكريّة مثل ما كان عليه الناس في عهد الصحابة فيحاولون أن يروا في الرّماد نارا وفي الجمود حركة. فلا يميزون ما حدث من تغيير في الكلمة وفي الفكر وفي النظر فيقيسون أنفسهم بهم دون شعور، وهذه مصيبة كبيرة وعقبة كؤود تحول دون رؤية الأمراض التي تصاب بها المجتمعات، فليس هناك نظرا اجتماعي سنني مثل نظر الرسول صلّى الله عليه وسلّم للمشكلة الاجتماعيّة. وإنّني أجدني أشعر بضيق شديد من خفاء هذه الأمور وعدم وضوحها، هذا الخفاء الذي يعيق حركة التقدّم في التغيير والإصلاح لما يحيط به من غموض، فما لم نسيطر على خريطة تغيير ما بالنفس وما لم نتمكن بوضوح من سنة التغيير وما ينبغي أن نغيّره وما ينبغي أن نحذفه وما يمكن

أن نضيف إليه سنضل في طريقنا بعفوية لا قصد فيها ونحافظ على أفكار تعوق تقدّمنا وننبذ أفكارا ونعاديها بينما لا غني لنا عليها. وإذا كنا مقتنعين بأنّ لكلّ مشكلة طريقة لحلها فكذلك المسلمون لا يمكن لهم أنّ يتحركوا بجديّة لتغيير واقعهم ما لم يقتنعوا أن مشكلتهم تخضع لقوانين وسنن، فقد آن الأوان أن تستغل الكلمة استغلالا تاما في تحقيق جملة من الأهداف التي تصب في صالح حماية المجتمع من أخطار جمّة منها التصدعات الداخليّة والنزاعات الدينية واحتقار الذات. وأنّ تسعى الكلمة إلى تقويم آداءنا اجتماعيا ودينيّا وثقافيّا فالكلمة اليوم تؤثر بشتى الوسائل على أفكار وتقاليد الشعوب وهي الدعامة الأساسية التي توحدها وتوحد منظوريها إزاء شؤون الحياة مما يدفع إلى الإتحاد من أجل مواجهة المصائر المشتركة. وعليه ينبغي السعي بخطى حثيثة من أجل تسخير الكلمة لصالح مصالح التنمية البشريّة كعامل تقدمي ملحّ في هذا العصر. وقد هدفت هذه الدراسة إلى عرض الطريقة التركيبية لمفردة الكلمة في القران الكريم ابتداء بالأفعال ثم الانتقال إلى متعلقاتها من مصادر وأوصاف ودراسة إحصائية. أما فيما يخص خطة العمل فقط عمد أولا إلى إثبات معاني ألفاظ مفردة كلمة كما وردت في المعاجم وهو ما ينسجم مع اللغة وتعدد أفقها المعجمي والدلالي. ثم إلى بيان ما قاله المفسرون في هذا الشأن وعرض ترجيحاتهم للمعنى اللغوي المقصود، فتبدو المسألة اللغوية مستندة إلى التركيب والتفسير لبيان المعنى.وقد اتبعت في ذلك المنهج الوصفي مع الاستعانة بالمنهج الإحصائي كما استأنست بالتفسير البياني للنص القرآني للتواشج الحاصل بينهما للوصول إلى تحليل المعاني ومناقشة الآراء بالاستناد إلى كتب اللغة والتفسير.

المبحث الأول

نظرية التحول في الخطاب القرآني، الكلمة أنموذجا

المطلب الأول: الكلمة في القرآن الكريم: دلالاتها وصيغها المختلفة

إن الذي أنشأ هذا الكون الفسيح فأحسن وأتقن كل شيء فيه بنظام دقيق بديع هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم المعجزة الخالدة للناس كافة في كل زمان ومكان.وإن كل كلمة في هذا القرآن الكريم تأتي وفق تدبير محكم وفي موضع محدد لا تتقدم عنه ولا تتأخر بحيث لا يمكن أن تسد آية كلمة أخرى مكانها ولا تعطي نفس الأبعاد البيانية والرقمية التي كانت تعطيها تلك الكلمة.وإن موضع كل كلمة في القرآن الكريم له سبب ومبرر وحجة ومدلول قد نجهل جانبا كبيرا منه

ولكن يجب ألا يكون جهلنا به مبررا لإنكاره. كما أن ترتيب كل كلمة من كلمات القرآن الكريم هو وحي من عند الله عز وجل ويأتي وفق ميزان دقيق ونظام محكم على مستوى الآية والموضوع والسورة والقرآن الكريم ككل.

أ- **في نظام دلالات الكلمة في القرآن الكريم:** الكلمة لفظ يقع في عدة معان وهذه المعاني تنصرف إلى وجوه ودلالات بلاغية حسب موقعها مع سياق النص القرآني فضلا عن تعدد صياغاتها الصرفية ووجوهها الإعرابية.

١-**الكلمة عند النحاة:** هي اللفظ الموضوع لمعنى المفرد، والمفرد هو ما كانت له دلالة معقولة في ذهن السامع والمتكلم، واللفظ هنا هو عموم ما يصدر من المتكلم على مستوى المفرد إسما كان أو فعلا أو حرفا كما أن اللفظ عند النحاة يتسع ليشمل الكلام والكلمة والكلم ولكل من الثلاثة مفهومه الخاص ومصاديقه الخاصة[١].فالملاحظ هنا هذا التعريف المذكور يجعل كل من الكلام والكلم والكلمة قسما للآخر يلحظ دلالة كل واحد منها على إفادة المعني وبالتالي هناك علاقة تراتبية ذات طبيعة توالدية في العلاقة بين المصاديق الثلاثة للفظ إذا جاز التعبير. والكلمة هي أصغر وحدة في الكيان اللفظي ومن ثم الكلم انتهاء بالكلام أي أن كلا منهما يصدق عليه تعريف لفظ ذو معنى إذا أخذ مستقلا عن قسميه[٢].

٢- **الكلمة عن اللغويين:** الكلم عند اللغويين هو التأثير بأحد الحاستين فالكلام مدرك بحاسة السمع والكلم بحاسة البصر وكلمته أي جرحته جراحة بان تأثيرها.فالكلم أثر دال على الجرح والكلام أثر دال على المعنى الذي تحته. والكلام عند اللغويين أعم من أن ينحصر باللفظ الموضوع لفائدة يحسن السكوت عليها كما هو عند النحاة. فهو اسم لكل ما تكلم به مفيدا كان أو غير مفيد. وتطلق الكلمة في عرف اللغويين على أكثر من معنى كالخطبة والقصيدة وقد تطلق على الكلام كما في لا إله إلا الله وتسمى كلمة التوحيد وغير ذلك وقد يراد من الكلام هو القول بنحو الترادف. فيكون المحصل من ذلك هو أن معنى (أقول/ قال) هو (أتكلم/ تكلم) كما جاء في سورة البقرة ١١٨. يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾"[٣] [٤]

٣- الصيغ الصرفية الإسمية والفعلية للكلمة في القرآن الكريم:

* الصيغة الاسمية: تنقسم الصيغة الاسمية إلى ثلاثة أقسام هي المفرد والجمع (جمع قلة وجمع كثرة) فالمفرد ذكر في القرآن الكريم (٣٠) مرة في (١٩) (سورة

البقرة –آل عمران– النساء –الأنعام– الأعراف – التوبة– يونس–هود– إبراهيم – الكهف – طه – الصفات – الزمر– المؤمنون –غافر– فصلت– الزخرف – الشورى– الفتح) على وزن فعلة بواقع (٢) في حالة الإضافة ومرة (١) في حالة الجر، و(٢٣) مجردا و(٣) مرات على وزن فعال ومرة (١) مفعولا مطلقا دلالة على التوكيد فيكون المجموع(٣٠).

أما جمع القلة فقد ذكر (٤) مرات على وزن فعل في (٣) سور (النساء – المائدة – فاطر) في حين ورد جمع الكثرة في القرآن الكريم على وزن فعلات بفتح الأول وكسر الثاني (١٣) مرة في (٩) سور (البقرة – الأنعام – الأعراف– الأنفال– يونس – الكهف – لقمان–الشورى– التحريم).

***الصيغة الفعلية:** تنقسم الصيغة الفعلية بحسب ورودها في القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

١– الماضي: (٥) مرات في (٤) سور

٢– المضارع: (١٨) مرة في (١٢) سورة

٣– مبنى المجهول: مرة (١) في سورة (١) فيكون المجموع (٢٤) مرة في (١٧) سورة، (البقرة – آل عمران – النساء – المائدة – الأنعام – الأعراف – هود– يوسف – الرعد– مريم – النور – النمل – المؤمنون – الروم – يس– الشورى – النبأ) وبذلك يكون أيضا مجموع ورود الكلمة في القرآن الكريم على اختلاف صيغها الاسمية والفعلية (٧١) مرة في (٣٢) سورة (البقرة– آل عمران – النساء – المائدة – الأنعام – الأعراف – الأنفال – التوبة – يونس – هود– يوسف – الرعد – إبراهيم – الكهف –مريم – طه–المؤمنون– النور– النمل– الروم– لقمان– فاطر –يسن– الصافات – الزمر– غافر– فصلت– الشورى– الزخرف– التحريم– الفتح– النبأ)[٥]وعلى ضوء هذا الاحتساب يتبين لنا أن خطاب الكلمة في القرآن الكريم يشكل مفهوما قائما بذاته ولا يعرف بالمقابل نصا دينيا أو فلسفيا قبل القرآن الكريم احتوى هذه النسبة من المفاهيم ناهيك الأصلية التي تفرد بها نسيج الخطاب الإلاهي للبشر إذ نشأت في جوانيته نظاما متكاملا لخطاب الكلمة توزع بالتدرج الإحصائي على الشكل التالي:

* القضاء والسنن الإلهية (الأعراف – طه– يونس– هود– الأنعام– الشورى– الكهف – فصلت – الأنفال – الفتح– التوبة)

* التخاطب بين البشر (مريم– يوسف– الأنعام– آل عمران –المائدة)

* الخطاب الإلهي للظالمين يوم القيامة (هود –المؤمنون–البقرة– آل عمران – النور)
* للاعتقاد بالحق والتوحيد (فاطر – الزخرف– إبراهيم – آل عمران)
* التكليم الإلهي للأنبياء والرسل (الأعراف – الشورى– البقرة– النساء)
* المسؤولية في تصريف الكلام الإلهي (البقرة – النساء – المائدة)
* الشهادة والبرهان (يس– النمل– الروم– البقرة)
* النبي (آل عمران – النساء)
* العذاب: (الزمر– غافر)
* القدرة الإلهية (لقمان –الكهف)
* القرآن (التوبة)
* الكلام الملائكي (النبأ)
* التوبة (البقرة)

التقوى (الفتح)

النصر للأنبياء (الصافات)

* الثواب(الأعراف)
* الاختيار للبشر (البقرة)[٦]

وعليه نلخص مع الدلالات الكلامية السابقة أن مشروع الرسالة الإسلامية متشكل في نظام متماسك من الدلالات داخل حركة خطاب الكلمة في القرآن الكريم، والمتحول من جهة أخرى إلى بنيان متماسك من المفاهيم المكثفة والمتنوعة في وحدة منهجية منسوجة هي عقيدة التوحيد. أيضا في القرآن الكريم تركيز على مفاهيم وموضوعات مخصوصة دون غيرها أو هناك كثافة للآيات القرآنية توجه إلى مفهوم أو قضية أولى بذاتها وتدني عددها في قضايا أو مفاهيم أخرى لا لأن المفهوم أو القضية الأولى أكثر أو أقل من المفهوم أو القضية الثانية مطلقا.بل لأن المشيئة الإلهية ارتأت في سياق محدد إبراز قضية معنية أكثر من غيرها قياسا على طبيعة الموضوع المعالج الذي تهتم بتبنيه وإظهاره وإلى الأسباب والأهداف والنتائج المتعلقة به. وقد تتحول هذه القضية أو المفهوم ذاته في مناسبة أخرى أو مجال آخر إلى شأن ثانوي فليس مجرد ترداد ذكر مسألة من المسائل كافيا وحده في القرآن الكريم لتصنيفها مهمة أو غير مهمة أو أنها أكثر أو أقل أهمية من غيرها. وهكذا تكون الكلمة في القرآن الكريم حشدا من الرؤى المتنوعة المستلة

من القرآن الكريم الذي لا ينظر إلى البشر والموجودات الأخرى إلا نظرة توحيدية إلهية. وبالتالي فهي قد أقامت صرحا منهجيا يضاف إلى الصروح المنهجية القرآنية الأخرى في قراءة الإنسان والتاريخ عبر إعادة الكثرة إلى الوحدة وتفعيل الحضور التوحيدي في عالم الشهادة والآفاق والذي لم يكن موجودا في الفلسفة اليهودية القديمة وفي الفلسفة المسيحية.

٤- أوصاف الكلمة في القرآن الكريم: لقد تعددت هذه الأوصاف حسب سياقاتها التي وردت فيها والأغراض التي أريد بيانها وهذه الأوصاف هي كلمة طيبة – كلمة خبيثة – كلمة سواء – كلمة التقوى – كلمة الفصل – كلمة العذاب – كلمة الحسنى – كلمة الكفر – كلمة سفلى (باعتبار الجعل الإلهي) كلمة العليا (كذلك) كلمة باقية (كذلك) الكلام الطيب – كلمة ربك وغيرها. وهو ما يوقف على ثراء التعبير القرآني وسعة إمكانياته الدلالية في استثمار المفردات وتوجيهها إلى مقاصد بلاغية تختصر حاجة المتكلم بأوجز تعبير وأقصر بيان. ويلاحظ أن القرآن الكريم أيضا يقدم عرضا ثنائيا من خلال المقابلة بين الوصف وضده، أحيانا بقصد التأثير على المتلقي وإعطائه الفسحة للتأمل والاستنتاج. ومن ثم ترك الخيار له وهو ما نجد له مثالا في حياتنا اليومية حيث نرى سمير مثلا من الناس يعرض على أحمد أحد أمرين يخيره بينهما من موقع من بيده الحل والعقد كي يلزمه في النتيجة بناء على اختياره على الترغيب تارة وعلى الترهيب تارة أخرى. ويقيم عليه الحجة بفساد عذره لما تقدم من تحقق إرادته في الاختيار قبل الشروع في الأمر. ومن الأمثلة على ذلك نلاحظ التقابل بين كل من كلمة طيبة، الكلام الطيب ضد كلمة خبيثة/ كلمة عليا ضد كلمة سفلى / كلمة التقوى / كلمة الحسنى ضد كلمة الكفر، كلمة العذاب.[٧]

المطلب الثاني: الكلمة في القرآن الكريم وتطور المجتمعات:

أ- الكلمة والمجتمع:

إن القدرة على النطق أو الكلمة لدى الإنسان هي قدرة إنسانية بحتة ولا مثيل لها لدى كل أنواع المملكة الحيوانية وذلك منذ أن ارتقى هذا النوع إلى مستوى متقدم من التطور قبل ما بين ١,٥ إلى ٢ مليون نسمة. ومن المعلوم أن نشوء ظاهرة الخطاب والكلمة عند الإنسان كان من أجل تلبية الحاجة إلى تبادل المنافع بين أفراد الجماعة البشرية وفي مقدمتها نقل الخبرات والمعلومات بين الأفراد عبر الأصوات المشكلة لمفردات الخطاب أو الكلام وعبر وسائل مبتكرة

ومتعددة مهما تباعد الأفراد والأزمان.

والكلمة ظاهرة إنسانية وكونية حاملة للإبداع الثقافي وما كان للثقافة أن تكون بدون الكلمة. وهي أيضا شكل من أشكال التربية فحين تعلم الطفل التكلم إنما يتعلم قائمة ما عليه أن يتعلم أو يعي أو يفعل ما عليه ألا يتعلمه وألا يفعله من القيم والخبرات ومن المعلومات. وهي عبارة عن مادة أو مضمون موجه للآخر من الكبار إلى الصغار ومن العالمين إلى الأميين ومن المختصين إلى العادين ومن المبدعين إلى غيرهم ومن المتفوقين إلى القاصرين ومن السابقين إلى اللاحقين ومن الباثين إلى المتلقين. وبالكلمة يعبر الإنسان عن مشكل وجود الفكر وأداة تشكيل ونقل الوعي حيث لاوعي خارج الكلمة وبها يعبر الإنسان عن ذاته وفي تعبير ذلك يبدع ويحيا بحريّة وبعبارة أخرى فإن الكلمة هي التي أنشأت الإنسان وليس الإنسان هو الذي نشأ الكلمة.

لا يمكن تبليغ الخطاب حول التحديث الحضاري إلا إذا وقع تحديث الخطاب ذاته على المستوى اللساني والبلاغي والهيكلي. وبناء على هذه المسلمات كان من الضروري إبراز قيمة الكلمة باعتبارها آلة للتعبير على بعد اجتماعي حضاري. وانطلاقا من هذه الاعتبارات وحتى نضع هذا المطلب في إطار لم نر بدا أن نركز على وظيفة الكلمة الاجتماعية والاستدلال على ذلك هو أن الكلمة هي ظاهرة اجتماعية تندرج ضمن إطار الأنظمة العلمية العامة فتمثل أفعالا كلامية تعكس بدورها أفعالا اجتماعية وتتجلى قيمتها في تلك الرابطة بين المتكلم والمجتمع.لأن علاقة الفرد بالكلمة لا تبرز إلا من خلال التعبير عن حاجيات المحيط الذي يعبر عنه وبهذا لا تكتسب الكلمة قيمتها إلا إذا خضعت للعرف الاجتماعي ولا يتحقق وجودها إلا إذا ما تواضع حولها أعضاء المجتمع حتى أن نمطية الخطاب تحدد من خلال الطبيعة التعاقدية والثقافية للأنماط. ولا يقف التعاقد عند اختيار اللفظ أو معناه فقط بل يتولى كذلك تأويله فيستقي أفراد المجموعة الواحدة تلك الوحدات مما تراكم في التراث وتسمح هذه الوضعيات للمتلقي أن يبلور تقييماته واختياراته التأويلية فينتقي منها ما يلائم وضع ويهجر ما هجر مدلوله. وانطلاقا في هذه الفرضيات يصبح النص مدرجا من المدارج الثقافية ينبثق عن المجتمع فيستمدّ صوره وأغراضه ومدلولاته ورموزه عامة من مركباته. هذا على مستوى المجموعة أما على مستوى الفرد فتكون للفرد روابط نفسية مع الكلمة بحيث يعبر عن الأوضاع المبطنة الذاتية للكاتب أو المتكلم

وطموحاته واعتقاداته وحتى إلى وظيفة أو وطبقة معنية. هذا علاوة على مؤثرات المحيط الذي يتفاعل مع واقعة فيملي أسلوبا معنيا ويستعمل رصيدا لغويا متميزا يتكيف وذلك النمط الاجتماعي الذي يتجاوب معه. والكلمة ظاهرة حضارية يطرأ عليها ما يطرأ على المجتمع من العوارض وهكذا فهي تخضع تغيراتها الدلالية والمفهومية لتلك التغيرات والعوارض التي تنتج عن تلك الحاجيات المتجددة داخل المجتمع. ولا تضمن بقاءها إلا بتلبية الرغبات المستحدثة حسب متطلبات العصر وتمسي حاجياتها رهنية تغيراتها التي تواكب عامة تغيرات المحيط الذي تنشط فيه. ويتفاوت هذا التغير الكلمي مدى وعمقا حسب التغيرات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية المحافظة أو المتفتحة والتي تحدد التوجهات التربوية التقليدية أو المتحررة وكذلك حسب عزلة المجتمع التي تنشط فيه أو تفتحه على عوالم أخرى ومجتمعات مختلفة[٨]

ب- من مفاتيح السعادة في القرآن الكريم:الكلمة الطيبة:

لقد كانت الكلمة أساس وجود الخلق سواء المكلف منه أو المعنى من المساءلة والمحاسبة حيث كلم الله تعالى عباده من الملائكة وأخبرهم بعزمه على خلق آدم عليه السلام وحاورهم سبحانه وتعالى عن هذا الخلق وطبيعته وقدراته وإمكانياته البدنية والعقلية والعلمية ومهمته في الوجود. فأخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة أي قوما يخلق بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل. فتساءلوا بدهشة واستغراب[٩]، وهو سؤال استفساري وليس اعتراضي لأنهم حسب كثير من المفسرين شهدوا خلائق أخرى قبل آدم عليه السلام عاثت في الأرض فسادا وأراقت أنهارا من الدماء فاعتقدوا بالقياس أن المخلوق الجديد سيكون هذا الآخر عنيفا دمويا. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[١٠] وجعل الله تعالى من آدم نبيا ومنه أنبياء ورسل وهم يقينا من أكبر متكلمي البشرية على الإطلاق لأن الله تعالى كلفهم بإخبار الناس بالدين الحق الذي يقوم على توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية المطلقة. قال تعالى:

﴿إِنّ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ

هِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[١١]

غير أن الكلمة بقدر ما تتمتع بالحرية الواسعة والممتدة بقدر ما هي مقيدة بالضوابط والإجراءات العرفية والأخلاقية والقانونية. ومن الخطأ القول بأن الكلمة عموما محررة من التضييق الإيجابي وأنها لا تخضع لأي اعتبار وأنها تملك الحصانة والقدرة على الانفلات والتحليق في سماء التعبير دون مراقبة أو مساءلة أو محاسبة.[١٢]

بل هم أداة وفكرة عاقلة يعبر من خلالها الفكر الإنساني الراشد عما ينبغي القيام به من أجل النهوض بالفرد والجماعة والانتقال بهما من الخوف إلى الأمن ومن الشدة إلى الرخاء ومن التنافر إلى التعايش ومن التعصب إلى التسامح ومن الفرقة إلى الوحدة ومن التنازع إلى التعاون على البر. وكلما كانت الكلمة محمية بالنضج والرشد والعقلانية إلا وابتعدت عن اللغو والإساءة والتزييف وقلب الحقائق وتمكنت من القيم برسالتها المبنية على قيم الحق والخير والصدق والإصلاح والتعبير. ولا يخفى على أحد أن الكلمة في الدين فرض في العلم وفي السياسة وفي القضاء وفي الإعلام عانت قديما وحديثا من التطاول والتجني فصارعت الباطل وواجهت الكذب وأكرهت على خوض بعض المعارك وهزمت على بعض الجبهات وأجبرت على الانسحاب من بعض الأحداث والوقائع. لكنها أبدا لم ترفع راية الاستسلام ولم تخضع لمنطق التهور والتجديف والبهتان، بل صمدت وتسلحت بأخلاقيات دينية وإنسانية رفيعة وهي تواجه مختلف الابتلاءات والمحن مما فسح لها أكثر من مرة مجال العودة إلى حياة الشرف لبناء صرح الحرة والمسؤولية وإقناع المجتمعات بفضيلتها وبأنها السبيل الأمثل لإنقاذ البشرية من جاهلية التعصب والعنصرية والعنف. يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[١٣]

لكن لا خير في كلمة لا تضيف شيئا في الخلق وفي العلم وفي المعرفة وفي القول وفي السلوك الإنساني وفي العمل الإنساني الموجه لحفظ النفس والعقل والنسل. لذلك هناك كثير من الناس يجهلون قدرات الكلمة وخطورتها في البناء أو الهدم. وفي الإصلاح أو في الازدهار أو في التخلف وفي السواء أو في الانحراف فوراء الكلمة قوة غير منظورة قد تكون إيجابية فتنمي الوعي وتزرع الخير أو

تبطش بكل إرادة خيرة تنال من كل وعي راشد. والمؤكد أن الكلمة كانت خيرة وهادفة لأن الله تعالى أخبر ملائكته بأن مخلوقه الجديد آدم عليه السلام محصّن بفطرة تشهد بالوحدانية وتتمتع بكل المقومات التي تكسب صاحبها العلم والمعرفة. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٤]

وتميل إلى الصلاح والحق وعمارة الأرض بما يضمن النوع الإنساني قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[١٥] كما أن لا أحد يختلف حول أن آدم عليه السلام قد وظف كلمته في التعريف بالدين الحق الذي يقوم على شهادة أن لا إله إلا الله وفي نشر المعروف والدعوة إليه وفضح المنكر والنهي عن إتيانه بصوره المتعددة والمتنوعة والملتبسة وفي التأسيس لحياة إنسانية تسودها الفضيلة وتحكمها موازين الحق والعدالة والخير. لذلك نعتقد أن الكلمة منذ نشأتها تعمل بوسائلها المشروعة والنظيفة من أجل الوصول إلى الحقيقة في كل شيء وتسهر على أداء رسالتها النبيلة وتقديم المعلومات والأخبار والآراء والأفكار والمعتقدات لكافة الناس بروح الحرية المقرونة بالمسؤولية محافظة في ظل تحركها الدائم على شرفها من التلوث والانحياز للباطل وواعية بخطورة آثارها إن حادت عن خط الضمير الحي والسلوك القديم.

لقد تبنى القرآن الكريم منذ نزول أوائل سوره منهج التعريف بنبيه ودعوته ورسالته ثم تعاقبت مئات الآيات القرآنية في النزول توجه الرسول صلى الله عليه وسلم وتحثه على التبليغ والتبشير والإنذار والصدع بما يؤمر والإعراض عمن رفض دعوته وعدم الالتفات إلى من شرع في ضده ومناهضته. وفي هذا السياق نجد في سورة المدثر دلالات كبيرة للمهمة العظيمة التي كلف بها الرسول الأمين. حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ. قُمۡ فَأَنذِرۡ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾.[١٦]، أي تبليغ الرسالة القائمة على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأن يكلفه بالعمل على إجبار الناس على إكراههم على الإيمان بعقيدة التوحيد التي بشربها. يقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.[١٧]

وقد قامت الكلمة في القرآن الكريم على أساسين أوّلها التبشير بالحق

والرحمة والعدل والجنة وثانيهما النذير بعذاب الله تعالى الشديد في حالة اتباع الباطل والعمل بالعقائد المزيفة الفاسدة. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[١٨]

وعليه فالكلمة الطيبة والمسددة بالتوجيه القرآني تؤدي رسالتها الإنسانية والحضارية وتقرب الناس من حقائق الواقع ووقائع الحقيقة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.[١٩] بل هي تقوم على الأمانة والعدل والإنصاف وغير ذلك من القيم الأخلاقية دون أن تتوقف عن العطاء المثمر أو المساهمة في بناء شخصية الفرد إيمانا وخلقا وعاطفيا والمشاركة في بناء المجتمع تنمويا وثقافيا والانخراط في بناء الدولة عدلا ونصحا وحضريا. ولا تكون الكلمة طيبة إلا إذا راقبت نفسها بنفسها في حركتها وسكونها وفي علنها وفي سرها أي أنها لا تنطلق في ممارستها إلا وهي مطيعة لله في أمره ونهيه مستشعرة روح المسؤولية وجوهرها فيما تقوله وتكتبه وتحرره وتنشره ومن هنا لا يمكننا أن نتصور نزوع هذه الكلمة إلى اعتماد الكذب أو الزور أو البهتان أو التحريف في منهج تعاملها مع المعطيات والمعلومات والأحداث أو في منهج تواصلها مع الأفراد والجمعيات والمؤسسات. وفي المقابل فإن الكلمة الخبيثة تولد الفجور وتدفع بصاحبها إلى أن لا يقيم وزنا إلى ما يكتبه أو يذيعه به الناس بحيث يمكنه أن يزيف الحقائق أو يتعسف في قراءة الأحداث على نحو يخرجها عن سياقها وأسبابها وغاياتها انتصارا لما في صدره من رغبات أو آمال أو أحقاد. بل إنها سرعان ما ينكشف زيفها فتذهب مع الكريم، إن كان لا ضابط يحكمها ولا أخلاق ترشدها ولا مروءة تدفع غيها. يقول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.[٢٠]

ويحدث القرآن الكريم جملة من الخصائص التي تمنح الكلمة مزيد من حظوظ التأثير الإيجابي والبناء والقدرة على النفاذ سمعا وبصرا وفؤاد ألا وهي البساطة والبلاغة والفصاحة. يقول الله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾. [٢١] [٢٢]

عكس الكلمة المتنافرة في الحروف والألفاظ والغارقة في الوحشية والمعقدة في التركيب فهي غير قادرة على الإقناع والتبليغ والتفهيم ولا على تبيان الفكرة أو

الرسالة بكل وضوح وجلاء. ولقد وضع القرآن الكريم ضوابط كثيرة للكلمة ولكنها تتكامل فيما بينهما فنجد مراقبة الله تعالى حين أراد عملها، فالكلمة ليست متعة دنيوية ولا رسالة موجهة للأشباح أو لغير الإنسان. بل هي وسيلة حضارية تعمل على توفير الأساس المعنوي، لبناء مجتمع إنساني فاضل يقوم على علاقات متينة وقوية بين أفراد وجماعاته. والمجتمع العاقل هو من يجعل من كلمته سبب نهضته وانتصاره على ما يعترضه من عقبات وتحديات وآفات فالله تعالى يعلم كل الأعمال التي تقوم بها الناس سواء منها الطائعة له أو العاصية. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.[٢٣]، و نجد النهي عن الكذب والزور وما شابه ذلك. يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.[٢٤]، ونجد أيضا التحقق والتثبت من أي كلمة أو خبر أو نبأ قبل نشره. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾" [٢٥]

هذا الضابط يعد قاعدة أخلاقية عزّ مثلها في تراث الإنسانية إذا يدعونا الله تعالى إلى ضرورة التثبت من كل كلمة قبل نشرها مخافة من إلحاق الأذى بأحد أو بجماعة ما. فليس كل خير يذاع وليس كل إنسان يصدق وليس كل حادثة وقعت تروى بتفاصيل ناقصة أو زائدة، ما لم يعرف سببها وحيثياتها وخلفياتها الحقيقية.والمعلوم يقينا أن الخبر الكاذب والكلمة المزيفة في الأمر المتعلقة بالأمن أو الحرب أو الحياة الخاصة للناس له آثار مدمرة وأضرار جسيمة بل من شأن هذه الكلمة أو هذا النبأ أن يزرع الفتنة داخل المجتمعات أو يهدم أواصر أسر عرفت بالتماسك والفضيلة. على أن هذه الضوابط القرآنية للكلمة هي ضوابط ذات طبيعة إلزامية مما يعني أن عدم احترامها يستوجب الجزاء عن ذلك ولا معنى للإلزام إن لم يكن مقرونا بالمسؤولية فقد قيل إن المسؤولية هي نوع خاص من الالتزام تجعل المسلم مسئولا عن عمله وما خطته أنامله من قول أو فعل أو ترك ومعنى هذا أنه مسئولا أمام الله تعالى أولا وأمام ضميره إن كانت نفسه صادقة تخاف من الانحراف عن صراط الحق ثانيا.

المبحث الثاني

التغيير قانون الوجود والتجديد:

المطلب الأول: ماهية التغيير في القرآن الكريم ودلالاته:

لا جدال أنّ الوحي الإلهي نسق من المفاهيم ولا سبيل إلى فقهه أو فقه المفاهيم المكوّنة له بغير دراسة ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحاته. فالدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم هي مفتاح الوصول إلى ما نزّل على الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويراد بها ذاك البحث في المصطلح القرآني لمعرفة واقعه الدلالي من حيث مفهومه وخصائصه المكوّنة له وفروعه أي اشتقاقاته المتولّدة عنه ضمن مجاله العلمي المدروس به. وبصورة أكثر توضيحا هي استخراج مصطلحات نصّ من نصوص القرآن الكريم وتحليل استعمالاتها ثمّ تعليل معانيها وتصنيفها بحسب شواهد القرآن الكريم نفسه من أجل تعريف المفاهيم التي تدّل عليها تلك المصطلحات.

ومن المصطلحات التي تعدّد ذكرها في القرآن الكريم مصطلح التغيير الذي هو عبارة عن قضية منهجية ومعرفة مثلث محور اهتمام مشروعات الإصلاح والشهود الحضاري في حركتها الدائمة نحو الاستشهاد ببصائر القرآن الكريم في بناء الإنسان وإصلاح حاله والارتقاء باستعداداته في مدارج الهدايات. وتأسيسا على ما تقدم عدّ هذا محاولة جادة في اتجاه استخلاص عناصر المنظومة القرآنية المتكاملة للمدخل الإنساني الفردي في إقامة الإصلاح والنهوض بمقتضيات الاستخلاف والتزكية وتأكيد أن التغيير هو حقيقة علمية إنسانيّة مركبة ومتكاملة تبدأ بالفرد وتنتهي بارتقاء الأمة إلى التحقق بمعاني الخيرية والشهادة[٢٦].

أ- **مفهوم التغيير في القرآن الكريم وأهميته:** مصطلح التغيير مصطلح اختلف في مفهومه وتباين معناه بتباين مظانه في النص القرآني، إذ نجده تارة يفيد معنى باشتقاق معين ونألفه تارة أخرى يستدل به على مدلول آخر باشتقاق مختلف عن الأوّل. ويحسن بنا قبل معرفة دلالة التغيير في القرآن الكريم أن نعرف مدار مادة غير ومعناها في اللغة.

- **المدلول اللغوي:** يدور مصطلح التغيير حول أصلين:

الأصل الأول: باب التفعيل وهو إحداث شيء لم يكن قبله ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾"[٢٧] ومنه البدع وهو إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة، والله بديع السماوات والأرض ابتدعهما ولم يكونا قبل ذلك شيئا يتوهمها

متوهم.[٢٨]

الأصل الثاني: من باب التفعل وهو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى ومنه تبديل صفة إلى صفة أخرى مثل تغيير الأحمر إلى الأبيض ومنه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾"[٢٩]

والتغيير يكون إما في ذات الشيء أو في جزئه أو في الخارج عنه، فمن الأول: تغيير الليل والنهار ومن الثاني: تغيير العناصر بتبديل صورها. ومن الثالث: تغيير الأفلاء بتبديل أوضاعها.[٣٠]

• **المدلول الاصطلاحي:** بسبب دوران مصطلح التغيير حول الأصلين السابقين نجد الاختلاف في تحديد معنى التغيير كمفهوم اصطلاحي.

يقول الجرجاني:" التغيير هو إحداث شيء لم يكن قبله."[٣١]

ويقول الأصفهاني:" والتغيير يقال على وجهين أحدهما التغيير صورة الشيء دون ذاته ويقال: غيرت داري أي بنيتها غير الذي كان. والثاني تبديله بغيره نحو غيرت غلامي ودابتي أي أبدلتهما بغيرهما.[٣٢]

• **التغيير في الاستعمال القرآني:** ورد مصطلح التغيير في القرآن الكريم بجميع اشتقاقاته ستّ مرات في أربع سور وذلك على النحو التالي:

* الفعل المضارع: ٥ مرّات:

١- لفظ يغيّرن في قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[٣٣]

٢- لفظ يغيّروا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٤]

٣- لفظ يغيّروا في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[٣٥]

٤- لفظ يغيّر في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[٣٦]

٥- لفظ يتغيّر في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [٣٧]

* الإسم الفاعل: مرة (١) واحدة:

١- لفظ مغيّرا من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٣٩٣٨]

ويقود التدبّر العميق لكلّ موارد التغيير في القرآن الكريم إلى مجموعة من المعاني التي اختلف فيها العلماء على أقوال:

القول الأول: تغيير خلق الله من البهائم بإخصائهم إيّاها.

القول الثاني: تغيير خلق الله بالوشم

القول الثالث: تغيير دين الله

وجاء في جامع البيان أولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك قول من قال بتغيير دين فدخل فيه كلّ ما نهى الله عنه من خصاء ما لا يجوز خصاؤه ووشم ما نهى عن وشمه، وغير ذلك من المعاصي ودخل فيه ترك ما أمر الله به لأن الشيطان لا شكّ أنّه يدعو إلى جميع معاصي الله وينهى عن جميع طاعاته، فذلك معنى أمره تغيير دينه [٤٠]

• **التغيير في القرآن الكريم مطلب ملحّ:** إن التغيير أمر حتمي في القرآن الكريم فمنذ الآيات الأولى من سورة الفاتحة (٦-٧) يطلب الإنسان من الله تعالى عندما يخاطبه أن يلهمه النعمة والرغبة في التغيير فلا يكون من الأقوام التي ظلّت أو التي جهلت. والإنسان الذي يرفض التغيير يصنّف مع العقول المتحجّرة التي ربّما يأتي عليها يوم فتنقرض، بمعنى أن التغيير أمر ضروري في المجتمعات ومع الانفتاح الواسع في شتى العلوم وجميع المجالات وتطورات العصر المتسارعة كان لزاما على الأمم التسابق الحميم نحو تغيير مجتمعاتها إلى ما فيه عزّها ورفعتها وإلاّ أصبحت في ركب المتأخرين وتتابع عليها الفشل والتخلف في كثير من المجالات. والتغيير يكون للأفضل وقد يكون للأسوأ كالمعاصي ونحوها ومن أجل ذلك أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وذلك طلبا لتغيير حال الناس من الإشراك بالله تعالى وعبادة غيره إلى الإخلاص والتوحيد. وسنّة الله في التغيير ثابتة فلا يغيّر الله حال قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم إن خير فخير وإن شرّا فشر.

يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[41]، فقد نزلت هذه الآية الكريمة بعد غزوة بدر حيث هزمت قريش وقتل سبعون أغلبهم من رؤوس الكفر فبدّل الله تعالى حالهم من عزّة ومنعة إلى قتل وأسر وخزي فكان شأنهم كشأن آل فرعون الذي عاقبهم الله تعالى أشدّ العقاب بكفرهم وتكذيبهم[42].

قال الطبري:"إنّ الله لا يغيّر ما بقوم من عافية ونعمة فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم واعتداء بعضهم بعض فتحل حينئذ عقوبته وتغييره"[43]. فما أزال الله تعالى النعم على النّاس إلاّ بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، ولا يغيّر نعمة من نعم الدين والدنيا أنعمها على قوم بل يبقيها ويزيدها ما ازداد له الناس شكرا، والحكمة من ذلك العدل والإحسان إلى عباده. وفي ظل الوضع الحالي للأمة الإسلامية لا بدّ من تغيير جذري وفعال ينشلها من غفلتها وينتزعها من كبوتها ويرجع لها العلو والرفعة. وحتى يكون هذا التغيير مبنيا على الأسس الصحيحة لا بدّ أن يبدأ من الفرد وصولا إلى الجماعة فإذا صلحت النفس أمكن بعد ذلك أن تنقل صلاحها إلى المجتمع، فلا بدّ إذن من همة عالية وإرادة قوية وإقدام واثق فمتى تولدت في النفس تلك القوة سهل العمل البناء لتغيير حال الأمّة وإعادتها إلى مكانها الطبيعي في صدارة الأمم ومطلع الركب.[44]

ب- دور الوحي القرآني في إحداث التغيير:

• **التغيير في القرآن الكريم سنة كونيّة:** إن التغيير سنّة من سنن الكون التي نلمسها في عالمنا وكلّ تغيير في هذا الكون إنّما هو بإرادة الله تعالى وتدبيره، فالشمس لا تتخلّف عن موعدها طرفة عين، والقمر له دورته الثابتة لا يختلف عنها، ومنازله فلا يبرح فلكه. قال الله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[45] والنجوم تتراءى في مواقعها كأنها ثابتة. يقول الله تعالى:" فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ" [46]

سنّة مطرّدة في هذا الكون، تشرق الشمس في الصباح فتملأ الدنيا نورا ودفئا ثمّ تغرب في المساء فيحلّ الظلام والليل والنهّار ويتعاقبان. يقول الله تعالى:﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾[47]

وفي عالم النبات نرى صورا ومشاهد التغيير التدريجي تبدأ النبتة ضعيفة لينة ثمّ

تشتدّ وتمتد أغصانها ثمّ تزهر وتثمر، ويصفر النبات ويذبل ويجفّ في دورة عجيبة. يقول الله تعالى:﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [٤٨]

وفصول السنة متتابعة لا ينتهي فصل إلاّ ويسلّم لفصل فهذا فصل بارد ممطر وذلك معتدل تهبّ فيه الريح فتثير الغبار وتلقح الأزهار وتذوب الثلوج وتنحدر من المرتفعات وتكسو الخضرة البراري والقفار وتجري الجداول في الحقول والبساتين. وهذا فصل الصيف حر ورطب أو جاف، تورف فيه الظلال وتنضج الثمار وذلك فصل الخريف يابس معتدل تتساقط فيه الأوراق وتجفف الفواكه والحبوب في تنوع رائع، ولولا هذا التغيير لما استقامت الحياة ولما تحققت المنافع للإنسان. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [٤٩]

وهناك تغيير في حياة البشر وذلك حينما تتقلب الأحوال ويتبدل الزمان وتتداول الأمم. يقول الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٥٠]

إنّ كلّ شيء في حياتنا عرضة للتغيير المستمر على الدوام فكلّ يوم فيها هو يوم جديد وكلّ لحظة تمثل حدثا مستجدّا في العمر، وعلى حدّ تعبير الفيلسوف اليوناني "هرقليطس" فإنّ المرء لا يستحم في النهر مرتين لأن النهر يتغيّر بتغيّر جريان الماء فيه، مثلما يتغيّر الشخص فور إحساسه أو ملامسته لماء النهر. ورغم دقة هذه الملاحظة وصدقها الواقعي فإننا نميل في العادة إلى إسباغ طابع الثبات والديمومة ولو لفترات محددة على أنفسنا وعلى ما حولنا رغم ما يحدث من وجوه التغيير سواء كانت طفيفة أو كبيرة فإننا نظل نعتقد أن للنهر شكلا ثابتا وأن لشخصية الإنسان ملامح تبقى على حالها دون تغيير. [٥١]

- **التغيير في القرآن الكريم سنّة اجتماعية:** كما سبق أن ذكرنا حتى يكون التغيير مبنيا على الأسس الصحيحة لا بدّ أن يبدأ من الفرد وصولا إلى الجماعة، فإذا صلحت النفس أمكن بعد ذلك أن تنتقل صلاحها إلى المجتمع، ولا يتحقق التغيير

الاجتماعي إلا بتغيير الأنفس، وذلك بالوقوف عليها ومعرفتها وتزكيتها أي تنميتها والارتقاء بها. يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[٥٢] ،

ويقول الحسن البصري:" رحم الله إمرء عرض نفسه وعمله على كتاب الله فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله المزيد، وغن خالف أعتب نفسه ورجع من قريب." [٥٣] إنّها رحلة في أعماق النفس وغوص في مكنونها من أجل إصلاحها وتقويم سلوكها وسبر أغوارها لتصحيح مسارها، فالتغيير متاح أمام جميع المخالفين مهما سلف منهم وأوغلوا في طريق الضلالة. فالفرصة لا تزال سانحة لكي يغيروا من أحوالهم بدءا من إصلاح العقيدة بالإيمان بالله تعالى إلى إصلاح السلوك بالتقوى والتوبة الصادقة والاستجابة للمواعظ ففي ذلك خير الدنيا وللآخرة وتحصيل بركات الدنيا وثواب الآخرة، والدعوة إلى تغيير النفس هي محور دعوات الأنبياء. يقول الله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾.[٥٤] فقد دعاه برفق ولين إلى تزكية النفس فهي أساس كل تغير وإصلاح كما دعاه إلى أن يتطهر من الشرك ويتخلى عن الرذائل ويتحلى بالفضائل.

لقد كان القرآن الكريم هو منهج هذه التزكية ومصدرها وزادها ونبراسها. يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.[٥٥]. و كان للصحابة رضوان الله عنهم منهج فريد بالتربية بالقرآن الكريم إذ كانوا يتعلمون عشر آيات من القرآن الكريم فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العمل ويعملوا بها فيها فتعلموا بذلك العلم والعمل جميعا[٥٦].

وبهذا حدث التغيير العظيم لهذا الجيل الفريد الذي صنع الأمجاد وفتح الفتوحات وأحدث تغييرا كبيرا وحمل مشاعل النور إلى العالم. وحين نقارن بين ما كان عليه الصحابي قبل أن يسلم وما صنعه الإسلام فيه من تغيير ندرك أثر القرآن الكريم في الإصلاح والتغيير، فلقد غير هممهم وطموحاتهم ونقلهم من الجهل إلى العلم ومن الظلام إلى النور، وهل هناك تغيير أعظم من هذا ؟ يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ

ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥٧].

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "و الله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم"[٥٨]. كما نفر القرآن الكريم مما كان في الجاهلية من مفاسد وشرور فنهى عن الظنون والأوهام والتصورات الفاسدة. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم الجازمون بأن الله[٥٩] كما نهى القرآن الكريم عن ظلم الجاهلية والذي يتمثل في الأحكام المستبدة والأقضية الجائرة. يقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٦٠].

والذي يريد أن يقارن بين أي تغيير لأي كلام وبين تغيير القرآن الكريم فلينظر إلى كلام الفلاسفة وأثره في أتباعهم ولينظر إلى كلام القرآن الكريم وأثره على أتباعه فإن القرآن الكريم نزل مشتبكا مع الواقع ونزل ليغير في المشاعر العميقة التي تدفع الإنسان إلى العمل. ولم يكن كلام يتلى بل هو الذي دفع الصحابة إلى أن يسكبوا الخمر ويتركوا الأرض ويبذلوا النفس ويهجروا مضاجعهم وتتورم أقدامهم ويقوموا ويستغفروا لذنوبهم فتمثل فيهم الوصف الذي ذكره الله تعالى في أثر هذا القرآن الكريم. يقول الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٦١]. فتلقوا هذا النور ومشوا به في الناس وتحركوا في شتى مناحي حياتهم فإذا تغيير الأنفس هو أساس كل تغير والفرد هو لبنة من لبنات المجتمع وبصلاحه واستقامته صلاح المجتمع ونهوضه.

المطلب الثاني: فلسفة التغيير الاجتماعي في القرآن الكريم

أ – التغيير في القرآن الكريم فعل تراكمي: إن التغيير من المشاريع الحساسة في القرآن الكريم وهو يعد من المفاهيم المركزية المحورية وأحد أهم المصادر للمعرفة وللسلوك ما أجل تغير للواقع الإنساني. كما يعد حاجة فطرية مرتبطة بطموح الإنسان وأشواقه وأحلامه في الحياة. وقد جعل له القرآن الكريم وضعا شرعيا وواقعا دلاليا مشحونا بالإرادة والفعل فالآيات القرآنية الكريم الناطقة بمسألة التغيير ليست للترك ولا من أجل التفاؤل بها أو لأنها تحمل مضمونا غيبيا. بل لأن لما مفعولا اجتماعيا يؤسس لسنة الإلهية ويؤكد على حقيقة ثابتة، وهي أن التغيير هو فعل الإنسان وإرادته في الكون والحياة. يجب الانتباه والإقرار بهذه السنة التراتبية في ارتباط وثيق مع إرادة الله تعالى في التغيير فما أراده الله تعالى في ذلك هو

سنة متناغمة مع إرادة الإنسان في ذاته، ومع الفعل البشري في ممارسة أقصى طاقاته الذهنية والعملية. وهو من التعبد لله تعالى بمراعاة قانون السببية على من يقول بتطويع التاريخ لمبدأ التغيير وارتباط هذا الأخير بقيوده السببية. إذ أنه لا يكفي الفعل والعطاء والتضحية من أجل التغيير دون أن يكون هنالك جدوى حقيقية مرتبطة بالسنن والشروط الفنية لنجاحه لأن اليقين بارتباط أي إشكالية بسننها وقوانينها هو الذي يساعد على تطويعها وحلها وتسخيرها. وأن الجهل بالأسباب وبالسنن لا يلغي فاعلية الإنسان في التعاطي مع الظاهرة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو الحضارية، ولسنة التغيير ليست مجرد قانون يسلم به بل هي تكليف شرعي لابد من القيام به، فقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه أبو داود في سننه وهو يستنهض همم التغيير والقيام بالواجب تجاهه. "ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا فلا يغيرن إلا أصابهم الله بعقاب"[٦٢].لأن القدرة على التغيير تجعله واجبا، وأن التكاسل عنه يحوله إثما يستوجب العقوبة.

ب- المنهج الصحيح للتغيير في القرآن الكريم:

لا جدال أن تطبيق العملية التغييرية الجذرية التي نزل من أجلها القرآن الكريم لا بد أن من أن تكون وفق خطة مدروسة ونتيجة وجود منهج متبع يسار عليه، ولم يغفل القرآن الكريم هذا الناحية فقد تضمنت آياته الشريفة الواجبات والأساليب التي ترسم الطريق والمنهج للإنسان وتهديه إلى وسيلة النجاة في الدنيا والآخرة. وعند التأمل في الآية المقررة لسنة التغيير في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[٦٣].

فإننا نغوص في معان جليلة لهذا الفقه الحضاري:

١-أن هذه الآية المقررة لهذا القانون البشري الذي يحكم سلوك الإنسان ونتائج فعله هي عامة لكل البشر مهما كان جنسهم أو دينهم أو عرقهم أو ثقافتهم أو مكانهم أو زمانهم، وليست خاصة بالمسلمين فقط. وبالتالي فهي تعتبر عن قانون إنساني مجرد لا يستثني منه المؤمن لإيمانه ولا يعطيه حق الحصانة والإعفاء من الخضوع له ويجب أن لا يسقط في وهم الغرور أو السذاجة لأنه يخضع لنفس المنطق الذي يحكم قوانين الطبيعة والمادة والتي هي حاكمة على المؤمن والكافر وبالتالي فهو ناموس محايد وغير تمييزي. ولذالك يشير التدقيق القرآني إلى لفظة "القوم" بعمومها وإطلاقها، كما أنها جاءت نكرة لتستوعب الجميع دون استثناء وهو

ما يعني أن أزمة البشرية تحتاج إلى تغيير يرتبط بالإنسان ككائن مجرد وليست بالدين أو اللغة أو أنه مكون أخر نعلق عليه أسباب تخلفنا.

٢-أن هذه السنة هي سنة اجتماعية وجماعية وليست سنة فردية وخاصة ولذلك جاء التعبير عنها بلفظ القوم، لكيان عام وموحد وهي تشمل المجتمع أو الشعب أو الأمة بكل مكوناتها: ذكورا وإناثا وكبارا وصغارا مهتدين وضالين وعلماء وجهالا. وهو ما يرتب المسؤولية التشاركية وأن التغير عمل جماعي وأن الإصلاح فعل تراكمي حتى يقع التناسب بين الكم والنوع ويقع التوازن بين المسؤولية الفردية والمسؤولية الجماعية. وهو ما يعني أن التغير المنشود لا يقع بمجرد الإصلاح الفردي بل لا بد من الوصول إلى الأغلبية كحد أدنى حتى يأخذ استحقاق التغيير وتستحق حكم الكل به.

٣-هذه الآية تفجر الوعي بواجباتنا تجاه الدنيا بعيدا عن الهروب إلى الآخرة وبمسؤوليتنا في التعاطي مع الواقع بعيدا عن الاختباء وراء الماضي وبالتفاعل الإيجابي مع منسوب الصلاح أو الفساد في المجتمع، عن الخلاص الفردي لأن المسؤولية في التغيير مسؤولية جماعية في الدنيا أما الحساب والجزاء فيكون فرديا في الآخرة.

٤-الواضح من الآية الكريمة أن هناك عمليتين تغييريتين وهناك توزيع في الارادات في العملية التغيرية وهناك تغيير الإلاهي وهناك تغيير إنساني وأن التغيير الإنساني كواجب فردي في عالم الأسباب ومجاله النفس وهو سابق عن التغيير الالاهي كمكافأة جماعية في عالم النتائج ومجاله المجتمع. وأن الإرادة الربانية اقتضت أن تكون إرادة الله تعالى تابعة لإرادة الإنسان في هذا التغيير مع أنها هبة إلاهية وجزء من القدرة العلوية حتى يتحمل الإنسان مسؤولية الفعل والترك.

٥-أن مساحة التغير هو النفس البشرية فهناك علاقة تلازمية بين ما بأنفسنا وبين انعكاساته على التقبل وأن الانطلاقة الحقيقية لأي إصلاح أو تغير ونهضة حضارية هي الاستثمار في الإنسان والغوص في عمق العلل والمشاكل التي تواجه الطبيعة الإنسانية والفطرة البشرية. وهي لا تختصر في حاجاته ومتطلباته فقط بل أعمق وأخطر فهي تمس وجدانه وشعوره وعواطفه وتلامس روحه وعقله وقلبه وتداعب قابليته للخير وتتحسس من قابليته للشر. يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا."[٦٤]. و هو ما

يعني معالجتها بالأفكار والقيم حتى يستقيم في الإنسان فعله وسلوكه.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة إليكم أبرز النتائج التي توصلت إليها وهي على النحو التالي:

- حملت الكلمة في القرآن الكريم معان ودلالات بلاغية مختلفة بحسب موقعها في سياق النص القرآني دلت كلها على إعجاز القرآن الكريم وبلاغته وروعته وجماليته.

- تخضع الكلمة في القرآن الكريم إلى جملة من القيم والمبادئ والتصورات الحتمية والضرورية حتى تستطيع أن تقود إلى عمليات مجتمعية منتجة نحو أهداف نبيلة.

- آن الأوان أن تستغل الكلمة استغلالا تاما في تحقيق جملة من الأهداف التي تصب في صالح حماية المجتمع من أخطار جمة منها التصدعات الداخلية والنزاعات الدينية.

- لا خير في كلمة لا تضيف شيئا في الخلق وفي العالم وفي المعرفة وفي العقل وفي السلوك الإنساني.

- التغيير قضية منهجية ومعرفية مثلت اهتمام مشروعات الإصلاح والشهود الحضاري في حركتها الدائبة نحو الاستشهاد ببصائر القرآن الكريم في بناء الإنسان وإصلاح حاله والارتقاء باستعداداته في مدارج الهدايات.

- جعل الله تعالى لهذا الكون سننا تجري على كل شيء وجعل القوانين مقننة منضبطة لا خلل فيها.

- يؤكد معظم الباحثين أن بداخل كل إنسان قوة خفية ورغبة عارمة في التغيير، هذه القوة هي التي تجعل الإنسان غبيا وتجعل الآخر مبدعا وتجعل بعض الناس قادة.

- أكد القرآن الكريم منذ نزوله على منزلة الفرد داخل المجتمع لأن الفرد لا يكون له دور ولا تحصل له قيمة إلا بقدر إسهامه في التغيير الإيجابي للمجتمع.

هوامش البحث:

[1] ابن عقيل: عبدالله: شرحه على ألفية ابن مالك– مطبعة السعادة– ١٩٦٤–مصر– ١٥/١.

[2] المرجع نفسه ١٦/١.

[3] البقرة: ١١٨.

[٤] الراغب الأصفهاني: مفردات في غريب القرآن– دار القلم – دار الشامية – طبع ١– ١٤١٢ ه– دمشق– بيروت / القرطبي: مجمد: الجامع لأحكام القرآن– دار الكتب المصرية– طبعة ١– ١٣٨٤ ه/١٩٦٤ م – القاهرة – ٢/ ١٠٢

[٥] فاضل عباس: تحسين: جمال الدين مصطفى:جهوده و ظواهر لغوية في شعره، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة كلية اللغة العربية– ٢٠٠٥– العراق–٥٠/ الشافعي: حسين محمد: الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم– دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة– ط٦– ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢ مصر ٦٩٠–٦٩١.

[٦] أحمد الزين:محمود: أهمية اللغة العربية في فهم القرآن و السنة – دائرة الشؤون الإعلامية و العمل الخيري – ط١١٤٣٠/٢٠٠٩ م – الإمارات العربية المتحدة– ٦

[٧] السبحاني: جعفر: معالم التوحيد في القرآن الكريم– دار الأضواء– ط ٢–١٩٨٤م– بيروت ٢٢–٢٣

[٨] بوني: عفيف: الإبداع الإنساني الفكر الأسطوري الديني و العلمي– دار سحر للنشر و مركز النشر الجامعي– ١٦– ٢٠٠٨ م– ١٦٥ +١٦٧+١٧٠ / المسدي:عبد السلام: صناعة المصطلح: مؤسسات عبد الله للنشر و التوزيع–١٩٩٤م–٢٣–٢٤

[٩] البقرة: ٣٠

[١٠] البقرة: ٣٠

[١١] البقرة: ٢١٣

[١٢] ابن كثير:إسماعيل: القرآن العظيم– دار ابن حزم– ط ١–١٤٣٠ ه/ ٢٠٠٩ م– بيروت– ١٠٩

[١٣] هود: ٨٨

[١٤] البقرة: ٣١

[١٥] الأعراف:١٧٢

[١٦] المدثر: ١ الى ٣

[١٧] البقرة: ٢٧٢

[١٨] البقرة:١١٩

[١٩] إبراهيم:٢٤–٢٥

[٥] إبراهيم: ٢٦–٢٧

[٢١] القصص:٣٤

[٢٢] القليني: سامح: الجلال والجمال في رسم الكلمة في القرآن الكريم– مكتبة وهبة– ط ١– ١٤٢٩ ه / ٢٠٠٨ م– مصر– ١٣٠

[٣] الحديد:٤

[٢٤] الحج: ٣٠

[٢٥] الحجرات:٦

[٢٦]– الأنصاري: فريد: المصطلح الأصولي عند الشاطبي– دار السلام– ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م – ٢٣٥./ الفاسي: إدريس: نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي– معهد الدراسات المصطلحية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي– مطبعة النجاح الجديدة ط ١– ٢٠٠م – المغرب – ٢٣٥.

[٢٧]– الأنفال: ٥٣

[٢٨]– الجرجاني: علي: التعريفات– دار الكتب العلمية – ط١ – ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م–لبنان– ٦٣ / الفراهيدي: الخليل: العين– دار ومكتبة الهلال– د.ت– ٥٤/٢ / ابن منظور: مجمد: لسان العرب – دار صادر– ط٣ – ١٤١٤هـ– بيروت – ٣٥/٥

[٢٩]– محمد: ١٥

[٣٠]– الكفوى: أبو البقاء: الكليات– مؤسسة الرسالة– ط٢– ١٤١٩هـ /١٩٩٨م– بيروت– ٢٩٤

[٣١]– الجرجاني: علية: التعريفات – مصدر سابق– ٨٧

[٣٢]– الراغب الأصفهاني: الحسين: مفردات ألفاظ القرآن الكريم– مصدر سابق– ١٦٨/٢

[٣٣]– النساء: ١١٩

[٣٤]– الأنفال: ٥٣

[٣٥]– الرعد: ١١

[٣٦] الرعد: ١١

[٣٧]– محمد: ١٥

[٣٨]– الأنفال: ٥٣

[٣٩]– الشافعي: محمد حسين: الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – مصدر سابق – ٥٩٢– ٥٩٣

[٤٠]– الطبري: إبن جرير: جامع البيان عن تأويل أي القرآن– دار هجر للطباعة والنشر – ط١– ١٤١٢ هـ /٢٠٠١م – مصر– ٢١٥/٩ إلى ٢٢٢

[٤١]– الأنفال: ٥٣

[٤٢]– الطبري: إبن جرير: جامع البيان عن تأويل أي القرآن– ٧٨/٤ / أبو حيان: محمد: تفسير البحر المحيط – دار الكتب العلمية – ١٤١٣هـ /١٩٩٣م – لبنان – ٥٠٧/٣

[٤٣]– الطبري: ابن جرير: جامع البيان عن تأويل أي القرآن – مصدر سابق – ١٨/١٣

[٤٤]– ابن عاشور محمد الطاهر: التحرير والتنوير– الشركة التونسية للنشر والتوزيع – ط١ – ١٩٨٤م– تونس– ٤٥/١٠– السعدي: عبد الرحمان: تفسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان – مؤسسة الرسالة – ط١– ١٤٢٠هـ/٢٠٠م– ٣٢٤

[٤٥]– يس: ٤٠

[٤٦]– الواقعة: ٧٥

[٤٧]– الإسراء: ١٢

[٤٨]– الكهف: ٤٥

[٤٩]– آل عمران: ٢٦–٢٧

[٥٠]– آل عمران: ٢٦

[٥١]– غدنز: انتوني: علم الاجتماع – ترجمة فايز الصبّاغ – المنظمة العربية للترجمة – مركز دراسات الوحدة العربية – ط١ – ٢٠٠٥م – بيروت– ١٠٥

[٥٢]– الشمس: ٧إلى ٩

[٥٣]– الآجري: أبو بكر: أخلاق أهل القرآن– دار الكتب العلمية– ط٣– ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م – بيروت– ٣٨

[٥٤] النازعات: ١٧ إلى ١٩

[٥٥] المزمل:١ الى ٦

[٥٦] الذهبي: محمد: سير أعلام النبلاء– مدرسة الرسالة– ٣٦– ١٤٠٥هـ/١٩٨٥ م– لبنان ٢٧/٤

[٥٧] البقرة: ٢٥٨

[٥٨] البخاري: محمد:الصحيح–سلسلة الكتب السنة، دار الدعوة– ١٤٠١هـ/١٩٨١ م – إسطنبول– كتاب التفسير– باب سورة التحريم – ٨/ ٥٢٦– حديث رقم ٤٦٢٩.

[٥٩] آل عمران:١٥٤

[٦٠] المائدة: ٥٠

[٦١] الأنعام:١٢٢

[٦٢] أبو داود: إسماعيل: السنن– سلسلة الكتب الستة– دار الدعوة–١٤٤١هـ/١٩٨١ م– إستنبول – كتاب الملاحم باب الأمر والنهي– حديث رقم ٤٣٣٨

[٦٣] الرعد: ١١

[٦٤] الشمس:٧ إلى ١٠

فهرس المصادر والمراجع[٦٤]

- القرآن الكريم(رواية حفص)
- الآجرى: أبو بكر، أخلاق أهل القرآن– دار الكتب العلمية– ط٣– ١٤٢٤ه / ٢٠٠٣م.
- أحمد الزين: محمود، أهمية اللغة العربية في فهم القرآن والسنة – دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري –ط١– ١٤٣٠ه / ٢٠٠٩م – الإمارات العربية المتحدة
- الأنصاري: فريد، المصطلح الأصولي عند الشاطبي– دار السلام– ط١– ١٤٢٤ه / ٢٠٠٤م.
- البخاري: محمد، الصحيح– سلسلة الكتب السنة– دار الدعوة– ١٤٠١ه / ١٩٨١م – إستنبول.
- بوني: عفيف، الإبداع الإنساني في الفكر الأسطوري الديني والعلمي– دار سحر للنشر ومركز النشر الجامعي – ط١– ٢٠٠٨م.
- الجرجاني: علي، التعريفات – دار الكتب العلمية – ط١– ١٤٠٣ه –لبنان.
- أبو حيان: تفسير البحر المحيط – دار الكتب العلمية – ط١– ١٤١٣ه /١٩٩٣م – لبنان.
- أبو داود: سليمان، السنن– سلسلة الكتب السنة – دار الدعوة – ١٤٠١ه / ١٩٨١م – إستنبول.
- الذهبي: محمد، سير أعلام النبلاء – مؤسسة الرسالة – ط٣– ١٤٠٥ه / ١٩٨٥م – لبنان.
- الراغب الأصفهاني: الحسين، مفردات في غريب القرآن – دار القلم – دار الشامية – ط١– ١٤١٢ه – دمشق– بيروت.
- السبحاني: جعفر، معالم التوحيد في القرآن الكريم– دار الأضواء – ط٢ – ١٩٨٤م – بيروت.
- السعيدي: عبد الرحمان، تفسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان – مؤسسة الرسالة – ط١ – ١٤٢٠ه / ٢٠٠٠م.
- الشافعي: حسين محمد، الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة– ط٢– ١٤٢٢ه / ٢٠٠٢م– مصر.
- الطبري: ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن – دار هجر للطباعة والنشر – ط١ – ١٤٢٢ه / ٢٠٠١م – مصر.

- ابن عاشور: محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير– الدار التونسية للنـــشر– ط١–١٩٨٤م– تونس.
- ابن عقيل: عبد الله، شرحه على ألفية ابن مالك – مطبعة السعادة – ١٩٦٤م – مصر.
- غدنز: أنتوني، علم الاجتماع– ترجمة فايز الصباغ– المنظمة العربيـــة للترجمـــة – مركـــز دراسات الوحدة العربية – ط١ – ٢٠٠٥م – بيروت.
- الفاسي: إدريس، نحو منهجية التعامل مع التراث الإسلامي– معهد الدراســـات المـــصطلحية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي – مطبعة النجاح الجديدة – ط١ – ٢٠٠٠م – المغرب.
- فاضل عباس: تحسين، جمال الدين مصطفى: جهوده وظواهر لغوية فـــي شـــعره – رســـالة ماجستير – جامعة الكوفة – كلية اللغة العربية – ٢٠٠٥م – العراق.
- الفراهيدي: الخليل، العين – دار مكتبة الهلال – د.ت.
- القرطبي: محمد، الجامع لأحكام القرآن– دار الكتب المصرية – ط١– ١٣٨٤ه / ١٩٦٤م.
- القليني: سامح، الجلال والحمال في رسم الكلمة في القرآن الكريم– مكتبـــة وهبـــة – ط٢ – ١٤٢٩ه / ٢٠٠٨م – مصر.
- ابن كثير: إسماعيل، تفسير القرآن العظـــيم– دار ابـــن حـــزم – ط١ – ١٤٣٠ه / ٢٠٠٩م – بيروت.
- الكفوي: أبو البقاء، الكليات – مؤسسة الرسالة– ط٢ – ١٤١٩ ه / ١٩٩٨م – بيروت.
- المسدي: عبد السلام، صناعة المصطلح– مؤسسات عبد الله للنشر والتوزيع – ١٩٩٤م.
- ابن منظور: محمد، لسان العرب– دار صادر– ط٣ – ١٤١٤ه – بيروت.